

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة مريم

هذه سورة مريم التي اشتملت على بعض الأعاجيب الدالة على قدرة الله عز وجل، كقصّة ولادة يحيى عليه السلام، وقصّة ولادة عيسى عليه السلام. جاءت بعد سورة الكهف التي ذكر فيها بعض الأمور العجيبة الدالة على ذلك أيضًا، كما سبق أن عرفنا.

وهي تبدأ بقوله تعالى:

﴿كَهَيْصَ ۖ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۚ﴾ (١) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۚ ﴿٢﴾

﴿كَهَيْصَ﴾ من الحروف المقطعة، التي يلفت الله بها أنظار المعاندين للنبي ﷺ، الممتنعين عن الإنصات للقرآن الكريم، كما هو في الرأي الذي نستريح إليه.

ثم يقول ربنا: هذا الذي نتلوه عليك من القرآن مشتمل على ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ سبحانه، ﴿عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾، وذلك ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أي: دعا زكريا ربه ﴿نِدَاءً﴾ دعاء ﴿خَفِيًّا﴾ سرًا في جوف الليل؛ ليكون أقرب وأسرع للإجابة.

ولكن، بماذا نادى ربه..؟

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَنِيبًا ۖ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ﴾ (٣) يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۖ ﴿٤﴾

أي: ﴿قَالَ رَبِّ﴾ وقدم لدعائه بخمسة أشياء:

- أولاًها: ﴿إِنِّي وَهَنَ﴾ ضعف ﴿الْعَظْمُ﴾ جميعه ﴿مَنِي﴾ نظراً لكبر سني.
- ثانيها: ﴿و﴾ قد ﴿أَشْتَعَلَ الرَّأْسُ﴾ مني ﴿شَيْبًا﴾.
- ثالثها: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ﴾ فيما سبق ﴿شَقِيًّا﴾ أي: خائباً، يعني: لم تخبب دعائي قبلاً، بل كنت توجيهه دائماً، وأنا أريد أن أدعوك.
- رابعها: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ الذين يلوني في النسب، ويأتون ﴿مِنْ وَرَائِي﴾ أي: بعدي، على الدين أن يضيعوه؛ لعدم وجود ولد لي يقوم بحفظه.
- خامسها: ﴿وَكَانَتْ أَمْرًا قَارِعًا﴾ عقيماً لم ولا تنجب، حتى يتحقق مطلبي.
- ومع كل هذا: فإني أدعوك، ولا أياس من رحمتك. ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ ابناً، يحقق ما يلي:
- أولاً: ﴿يَرِثُنِي﴾ أي: يرث مني العلم، والصلاحية للنبوة.
- ثانياً: ﴿وَيَرِثُ مِنْ عَالٍ يَعْقُوبُ﴾ جدي، كذلك: العلم والنبوة.
- ثالثاً: يكون مرضياً عندك ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.
- وقد أجاب الله دعاءه هذا قائلاً:

﴿يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (٧)

قال تعالى: ﴿يَزَكَرِيَّا﴾ قد أجبنا دعاءك، و ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ شرفناه بتسمية من عندنا ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: لم يسم أحد بهذا الاسم من قبل. وفرح زكريا، وتعجب..

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ أَمْرًا قَارِعًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (٨)

يعني: ﴿قَالَ﴾ زكريا، وهو في غمرة الفرح: يا ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ﴾ كيف يكون ﴿لِي غُلَامٌ﴾ مع وجود هذين الأمرين:

- الأول: ﴿كَانَتِ أَمْرًا قَارِعًا﴾ لم تلد قط.
- الثاني: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ﴾ أنا ﴿مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ سناً متقدمة.

وكلاهما يتنافيان مع الإنجاب.

وينبغي أن يلاحظ جيدًا: أنه لا ينكر قدرة الله على ذلك، بل يسأل عن الكيفية لزيادة الاطمئنان. وكانت الإجابة هكذا..

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ جبريل عليه السلام: الأمر ﴿كَذَلِكَ﴾ يتم خلق غلام منكما، وقد ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ﴾ وبالنسبة لقدرتي، سهل ﴿هَيْنٍ﴾.

﴿و﴾ هل نسيت أنني ﴿قَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ بالمرة..؟
إذا: سيكون لك هذا الغلام الذي رجوته.

ولمّا سمع زكريا هذا الكلام، تاقّت نفسه إلى رؤية هذا الغلام الذي بشر به، ولذلك:

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ زكريا: يا ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِّي ءَايَةً﴾ علامة أعرف بها أن امرأتي حامل في هذا الغلام.

﴿قَالَ﴾ له ربه ﴿ءَايَتُكَ﴾ هي ﴿ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ أي: يحبس لسانك، فلا تستطيع التحدث مع الناس، مع سلامة لسانك ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ بأيامها ﴿سَوِيًّا﴾ كاملة. وحبس لسانه، وجاء موعد الصلاة.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾

يعني: ﴿فَخَرَجَ﴾ زكريا ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ وهو المسجد، الذي بشر فيه بالولد، والذي كانوا ينتظرون فتحه للصلاة فيه. ولم يكلمهم، فنظروا إليه.. !!

﴿فَأَوْحَىٰ﴾ أي: أشار إليهم بدون كلام ﴿أَن سَبِّحُوا﴾ ربكم، وصلوا إليه ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ في هذه الأيام الثلاثة، التي لن يتكلم فيها. وذلك: شكرًا لله تعالى. وعلم زكريا بحبس لسانه أن امرأته حامل، وولدت امرأته يحيى، وبعد مدة من الزمن: قال تعالى:

﴿يَجِئُكَ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَلَدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾

يعني: قلنا له: ﴿يَجِئُكَ خُذِ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة، واشتغل به، حفظًا، وفهمًا للمعاني، وعملًا بالأحكام ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد. وأنعمنا عليه بستة أوصاف: أولها: ﴿ءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ﴾ أي: الفقه في الدين، والقدرة على الفتوى ﴿صَبِيًّا﴾ صغير السن.

ثانيها: ﴿حَنَانًا﴾ رحمة للناس ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ من عندنا.

ثالثها: ﴿زَكَاةً﴾ طهارة وصلاحًا من عندنا.

رابعها: ﴿كَانَ تَقِيًّا﴾ مسلمًا، مقبلًا على الله، مطيعًا له.

خامسها: ﴿بَرًّا بِوَلَدَيْهِ﴾ محسنًا لهما، قولًا وفعلًا.

سادسها: ﴿لَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ متكبرًا ﴿عَصِيًّا﴾ عاصيًا لربه.

هذا، وكان جزاؤه منا على هذه الأوصاف الجميلة أن قلنا:

﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

يعني: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ﴾ أمان من الله ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطان، ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ من فتنة القبر ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ من أهوال يوم القيامة.

وبعد أن ذكر ربنا قصة خلق يحيى عليه السلام من شيخين كبيرين، وهي من العجائب: ترقى إلى الأصعب، وهو قصة خلق عيسى من غير أب. فقال عز وجل:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾

أي: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ وهو القرآن.. هذه القصة الأعجب، الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وهي قصة ﴿مَرْيَمَ﴾ عَلَيْهَا السَّلَامُ ﴿إِذْ أَنْبَأَتْ﴾ اعتزلت ﴿مَنْ أَهْلِهَا﴾ وأخذت للعبادة ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ بعيدًا عنهم، في الجهة الشرقية من البيت. وجعلت بينها وبين أهلها حاجزًا ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ يحول بينها وبينهم.

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا﴾ حينئذ ﴿رُوحَنَا﴾ وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ أي: ظهر لها ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ في صورة بشر تام الخلقة؛ لتأنس به، ولا تنفر منه، وتستمتع إليه. ولما رآته: فرعت ثم..

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ ﴿١٨﴾

يعني: ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿إِنِّي أَعُوذُ﴾ وأحتمي ﴿بِالرَّحْمَنِ﴾ الذي يرحم ضعفي، ويحميني منك، وابتعد عني ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ تخاف الله.

فرد عليها. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ﴿١٩﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لها.. لا تخافي، فلن أمسك بسوء، ولست بشرًا ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ وقد أرسلت ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ عن طريق النفخ بإذن الله ﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ طاهرًا من الذنوب، ناميًا على الخير. فتعجبت من هذا الكلام.. ثم:

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾ ﴿٢٠﴾

يعني: ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿أَنَّى﴾ كيف ﴿يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ كما تقول، ﴿و﴾ واقع الحال أنه ﴿لَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ عن طريق الزواج ﴿وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾ تعاشر الرجال في الحرام. وأجابها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلُكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ ﴿٢١﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ جبريل عليه السلام: الأمر ﴿كَذَلِكَ﴾ يتم خلق غلام منك دون أن يممسك بشر، وقد ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى﴾ وبالنسبة لقدرتي سهل ﴿هَيْنٌ﴾.

﴿و﴾ كذلك ﴿لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ دالة على وحدانيتنا وقدرتنا، ونجعله أيضًا ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ لمن آمن به.

﴿وَكَانَ﴾ خلقه على هذا النحو من غير أب ﴿أَمْرًا﴾ من عندنا ﴿مَقْضِيًّا﴾ به، لا يتخلف.

وتم النفخ بإرادة الله تعالى..!! وتم الحمل، بقدره الله سبحانه..!! وأحست مريم عليها السلام بالحمل يتحرك في بطنها.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (٢٢)

يعني: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أي: عيسى عليه السلام، وهو في بطنها ﴿فَانْتَبَذَتْ﴾ اعتزلت ﴿بِهِ﴾ من أهلها ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي: بعيدًا عنهم بعدًا كبيرًا.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: في أقصى الوادي، وهو: (بيت لحم). وذلك: فرارًا من قومها، أن يعيروها بحملها من غير زوج. وفي هذا المكان..

﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ (٢٣)

أي: ﴿فَاجَاءَهَا﴾ جاءها ﴿الْمَخَاضُ﴾ وجع الولادة، وألجأها ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ لتعتمد عليه. ثم كانت الولادة.. ﴿قَالَتْ﴾ جزعًا من هذا الذي حدث، وخوفًا من الناس ﴿يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ الأمر ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ لا يعرفني أحد.

﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (٢٤) وَهَزَى إِلَيْكَ جِذْعُ النَّخْلَةِ سَقِطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٢٦)

يعني: لَمَّا ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مَثُ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًا﴾ [مريم: ٢٣] أنطق الله سبحانه بقدرته عيسى وهو في المهد ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ قائلًا لها: ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾ لما أصابك من آلام الولادة البدنية، ولا من آلام كلام الناس النفسية. وبعد أن واساها، أرشدها إلى ما حولها من خيرات الله، حيث قال: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ نهرًا صغيرًا، يجري به الماء بعد انقطاع.

ثم بين لها ماذا تفعل قائلًا: ﴿وَهْزِي إِلَيْكَ إِجْذَع النَّخْلَةِ تَسْقُطَ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾.

﴿فَكُلِي﴾ من هذا الرطب ﴿وَأَشْرِي﴾ من هذا الماء ﴿وَقَرِي عَيْنًا﴾ فلا تخافي أحدًا، ولا تحزني لما حدث، ثم علمها كيف تواجه الناس قائلًا: ﴿فَإِمَّا تَرِينَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ وسألك عني، فلا تقولي شيئًا سوى ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ عن الكلام في هذا الموضوع وغيره، وأبدأ من الآن ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ﴾ بعد ذلك ﴿إِنْسِيًّا﴾ ولكن لا أكف عن ذكر الله.

وَأَنَسَتْ مَرِيَمَ، واطمأنت نفسها، وقويت على ملاقة قومها..

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾

أي: ﴿فَأَتَتْ مَرِيَمَ بِهِ﴾ أي: بعيسى من المكان البعيد، الذي كانت قد اعتزلت فيه ﴿قَوْمَهَا﴾ وهي ﴿تَحْمِلُهُ﴾. فلما دخلت عليهم ومعها الصبي: بكوا، وحزنوا؛ لأنهم كانوا أهل بيت صالحين، ثم ﴿قَالُوا﴾ لها ﴿يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ﴾ فعلت وارتكبت ﴿شَيْئًا فَرِيًّا﴾ منكرًا كبيرًا لماذا فعلت هذا ﴿يَتَأَخَتِ هَرُونَ﴾ في العفة والصلاح..؟ إن هذا لا يليق بك، حيث ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ﴾ يفعل الفاحشة، ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ تطلب معاشررة الرجال في الحرام كيف فعلت هذا..!!

ولم تنطق، ونظروا إليها نظرة اتهام، وعتاب وملامة..

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ﴿٢٩﴾

يعني: ﴿فَأَشَارَتْ﴾ لهم ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: كلموا هذا.. فغضبوا منها، وتعجبوا لفعلها، و﴿قَالُوا﴾ لها: أتهزئين بنا كيف نكلم ﴿مَنْ كَانَتْ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ لا يتكلم أصلاً..؟

وهنا، نطق الذي في المهد:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ﴾
أي: ﴿قَالَ﴾ لهم عن نفسه ثماني صفات، كلها تبرئ أمه من هذا الاتهام الذي وجهوه إليها. وهذه الصفات هي:

- الأولى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ فأثبت لنفسه العبودية، وبراً ربه عن الولد.
- الثانية: ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ أي: قضى بإيتائي الكتاب وهو الإنجيل.
- الثالثة: ﴿وَجَعَلَنِي﴾ فيما يأتي من الأيام ﴿نَبِيًّا﴾ أبلغ رسالته.
- الرابعة: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ نفاعاً للناس، وهادياً لهم ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾.
- الخامسة: ﴿وَأَوْصَانِي﴾ أي: أمرني ﴿بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.
- السادسة: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدِي﴾ محسناً لها، قولاً وفعلًا.
- السابعة: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ متكبرًا، ولا ﴿شَقِيًّا﴾ عاصيًا لربي.
- الثامنة: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ وهذا تأمين لي من الخوف في أخرج الأوقات، وأشد الأزمات.

وبهت القوم، وسكت الجميع، ومرت الأيام، ومضت السنون، واختلف الناس فيه..!! فمن قائل: إنه عبد الله، كما قال عن نفسه. ومن قائل: إنه إله، أو ابن الله، كما سؤل لهم الشيطان. ولذلك.. قال الله لمحمد ﷺ وقوله الحق فيه:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۚ﴾ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ۚ سُبْحَنَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ﴾ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۚ﴾

يعني: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي وصف بهذه الصفات المذكورة، هو ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ عبد الله ورسوله، وليس كما قالت النصارى: إنه إله، أو إنه ابن الله. وهذا الذي نقول، هو ﴿قَوْلِكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَارُونَ﴾ ويشكون، ويختلفون، فاليهود يقولون: إنه ابن زنى، والنصارى يقولون: إنه ابن الله، وثالث ثلاثة. والحقيقة أنه ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ حيث يستحيل عليه ﴿سُبْحَنَهُ﴾ ذلك. بل هو الواحد الأحد، الذي ﴿إِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

ثم يحكي ربنا على لسان عيسى عليه السلام قوله لقومه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أنا عبده، وأنتم عبيده ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ ووحده، ولا تشركوا معه أحدا. و ﴿هَذَا﴾ الذي أقوله لكم ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فالتزموا به، وسيروا عليه، ولا تنحرفوا عنه.

ومع هذا الوضوح..

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٧) ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٨)

أي: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ وهي الفرق في شأن عيسى بعد ذلك ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ وهم النصارى، فمن قائل عنه: إنه الله، ومن قائل: إنه ابن الله، ومن قائل: إنه ثالث ثلاثة، ومن قائل: إنه عبد الله ورسوله.

﴿فَوَيْلٌ﴾ وهلاك ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من هؤلاء ﴿مِنْ مَّشْهَدٍ﴾ وأهوال ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة. ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ في هذا اليوم، بعد أن كانوا عميًا عن رؤية الحق، وصمًا عن سماعه في الدنيا.

﴿لَكِنِ﴾ ماذا يفيدهم السماع للهدى والبصر به يوم القيامة، إذ كان ﴿الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ وهم في الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ واضح. هذا هو أمر عيسى عليه السلام العجيب: الذي يدعو إلى الإيمان بقدرة الله، ووحدانيته، كل عاقل، ومنهم كفار عهدك يا محمد.

ولذلك: بلغهم به..

﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يعني: ﴿وَأَنْذَرُهُمْ﴾ خوف كفار قومك ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ وهو يوم القيامة، وما فيه من أهوال عظام ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لهم فيه بالعذاب، ﴿وَهُمْ﴾ اليوم في الدنيا ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عن هذا العذاب، ﴿وَهُمْ﴾ أيضًا ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به. إن عذابهم يسير علينا، حيث ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلُ الْأَرْضَ﴾ كلها ﴿وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ جميعهم ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ لا محالة، فنحاسبهم، ونجازيهم.

كذلك، وليتأكد الناس أن دعوة الرسل جميعًا هي العبودية لله..

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾﴾

أي: ﴿و﴾ كما ذكرت قصة عيسى لقومك ﴿أَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ وهو القرآن قصة ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ مع أبيه وقومه، حيث ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ مصدقًا لجميع الأنبياء وكتبهم ﴿نَبِيًّا﴾ في نفسه، وهو الجد الأعلى لعيسى، وجد العرب، وهو الذي تعترف به وبنبوته جميع الأمم. ولذلك: ففي قصته مع أبيه، تذكير لهم بدعوته، وتجديد لهم في دعوتهم إليها. وقصته هذه:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾

يعني: حين ﴿قَالَ لِأَبِيهِ﴾ منادياً بكل أدب واحترام هذه الأمور الأربعة:

أولها: قال متسائلاً مشككاً: ﴿يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ نفعا أو ضرا، من هذه الأصنام؟..

ثانيها: قال مخبراً ومرغباً: ﴿يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ عن طريق الوحي في توحيد ربي وعبادته ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ منه شيئاً بخصوص عبادة هذه

الأصنام.. لذلك: ﴿فَاتَّبَعْنِي﴾ وآمن بالله، واترك الأصنام ﴿أَهْدِكَ﴾ بهداية الله

﴿صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ طريقًا مستقيمًا.

ثالثها: قال ناهيًا ومنبهًا: ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ بطاعتك له في عبادة هذه الأصنام؛ فتهلك؛ حيث ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ فلا تطعه.

رابعها: قال مشفقًا ومحذرًا ﴿يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ﴾ عليك ﴿أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ بسبب شركك وعبادتك للأوثان ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ وقرينًا في النار. ثم ماذا قال أبوه..؟

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَتَابِرْهِمُ لِيْن لَمْ تَنْتَه لَارْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا ٤٦﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ معانداً، وساخرًا ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ﴾ عبادة ﴿ءَالِهَتِي﴾ التي أعبدتها، وأتمسك بها، ولا أتخلى عنها ﴿يَتَابِرْهِمُ﴾؟ ثم هدد قائلاً: ﴿لِيْن لَمْ تَنْتَه﴾ عما تقول، وتدعو إليه ﴿لَارْجُمَنَّكَ﴾ بالقول الفظيع والحجارة القاتلة.. فاحذرني ﴿وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ وابتعد عني نهائياً.

وهذا شأن الطغاة المعاندين الجاهلين: حيث يلجئون إلى التهديد عندما يعجزون عن الحوار والنقاش.

ماذا فعل إبراهيم..؟ يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ٤٧﴾
﴿وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨﴾

لم يفعل شيئاً سوى أنه ﴿قَالَ﴾ لأبيه بكل أدب وعطف وحسن معاملة ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ لا ينالك مني مكروه، حتى ولو رجمتني، و ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ أن يغفر ذنبك، وأن يهديك للإسلام؛ حيث ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ كريماً معي، مجيباً دعائي. ثم قال: ﴿و﴾ ليس هذا فقط، بل ﴿أَعْتَزِّلُكُمْ﴾ أترككم ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وأفارق بلدكم.

﴿وَادْعُوا رَبِّي﴾ وأعبده وأوحده في مكان آخر ﴿عَسَى﴾ أي: وكلني رجاء ﴿أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي﴾ وعبادته ﴿شَقِيئًا﴾ مثل شقاوتكم بعبادة الأصنام.
واعتزلهم بالفعل، وهاجر من أرضهم..

﴿فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾
أي: ﴿فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ﴾ إبراهيم، وهاجر من بلادهم، وتركهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وذهب إلى بلاد الشام: أبدله الله من هو خير منهم. حيث يقول: ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابن إسحق ﴿وَكُلًّا﴾ منهما ﴿جَعَلْنَا﴾ هو ﴿نَبِيًّا﴾.
﴿وَجَعَلْنَا﴾ لهم جميعاً ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ ثناء حسناً ﴿عَلِيًّا﴾ أي: في جميع الأمم، وكل أهل الأديان.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى لمحمد ﷺ:

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَذَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾
يعني: ﴿و﴾ كما ذكرت قصة عيسى عبد الله ورسوله، وقصة إبراهيم الذي كان يدعو إلى عبادة الله ﴿أَذْكُرْ﴾ لقومك كذلك ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ وهو القرآن، قصة ﴿مُوسَى﴾ ﷺ، وأخبر عنه المولى هنا بخمسة أخبار هي:

الأول: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ لله من الدنس والشرك.
الثاني: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ يدعو إلى عبادة الله وتوحيده، مثل باقي المرسلين.
الثالث: ﴿وَنَذَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ﴾ جبل ﴿الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ وأوحينا إليه.
الرابع: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ منا، فكان ﴿نَجِيًّا﴾ يسمع كلامنا، ومناجاتنا له حين أوحينا إليه.
الخامس: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا﴾ وإنعاماً ﴿أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ وزيراً له، يشد أزره، ويشركه في أمره، ويعينه على ذكر ربه.

ثم يقول له - ﷺ - ربنا كذلك:

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ كما ذكرت قصص هؤلاء المرسلين، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده ﴿أَذْكُرْ﴾ كذلك، قصة إسماعيل عليه السلام. وأخبر عنه ربنا بأربعة أخبار.. هي:

الأول: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ حيث لم يعد بشيء إلا وفى به.

الثاني: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ يدعو إلى عبادة الله وتوحيده، مثل إخوانه المرسلين.

الثالث: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ اهتمامًا بأهله، واعتناء بهم.

الرابع: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ عنه.

ثم يقول ربنا معلمًا أمة محمد ﷺ:

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

يعني: ﴿وَأَذْكُرْ﴾ كذلك ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ لقومك ﴿إِدْرِيسَ﴾ عليه السلام، حيث

﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ مثل إبراهيم عليه السلام، ﴿و﴾ أيضًا ﴿رَفَعْنَاهُ﴾ بالنبوة ﴿مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ومنزلة كبيرة.

وتعقيبًا على ذكر كل هؤلاء يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾

أي: ﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون، هم ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ كما أنعم على إخوانهم ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ وهم: ﴿مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ عليه السلام، وهو إدريس عليه السلام.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة، وهو إبراهيم عليه السلام ابن ابنه سام.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِبْرَاهِيمَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم إسماعيل، وإسحق، ويعقوب، عَلَيْهِ السَّلَامُ.
 ﴿وَإِسْرَءِيلَ﴾ أَي: يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى،
 عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ كذلك من غير من ذكرنا.. كل أولئك ﴿إِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ
 ءَايَتُ الرَّحْمَنِ﴾ الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ لله ولعظمته ﴿وَبُكْيًا﴾
 من خشيته سبحانه.

وقد أجمع العلماء على شرعية السجود هنا، اقتداءً بهم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا
 قرأ سورة مريم فسجد قال: هذا السجود، فأين البكاء، يعني: يعيب على نفسه عدم البكاء.
 أما نحن.. فأين البكاء؟ بل.. أين السجود؟ بل.. أين القراءة؟ ولا حول ولا قوة إلا
 بالله العلي العظيم.

وبعد أن وصف الله هؤلاء الأنبياء بصفات المدح؛ ترغيباً لنا في التأسى والاقتداء بهم،
 ذكر بعدهم من هو على الضد من ذلك، تنفيراً لنا من التأسى والاقتداء بهم.
 فقال الحق تبارك وتعالى:

﴿خَلَفَ مِنْ بَٰعِدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (٥٩)

يعني: ﴿فَخَلَفَ﴾ وجاء ﴿مِنْ بَٰعِدِهِمْ خَلْفٌ﴾ سوء ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ بإنكارها،
 أو عدم فعلها، فهدموا دينهم ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ وغرقوا في الملذات، ورضوا بالحياة
 الدنيا، واطمأنوا بها. لهذا ﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ﴾ أولئك جزاء شرهم ﴿غِيًّا﴾ خسارة،
 يوم القيامة. لكن..

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (٦٠)

يعني: ﴿مَنْ تَابَ﴾ عن كفره، ورجع إلى ربه ﴿وَءَامَنَ﴾ بالله ورسله ﴿وَعَمِلَ
 صَالِحًا﴾ يرضى به ربه، ويسعد به عباده، ويصلح به بلاده.

﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ من جزائهم بسبب ما عملوه قبل توبتهم.

ثم يصف ربنا تبارك وتعالى هذه الجنات التي يدخلونها، فيقول جل جلاله:

﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُومًا بَيِّنًا ۖ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۚ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ۝﴾

هذه الجنات وصفها ربنا بعدة صفات:

- الأولى: أنها دار إقامة أبدية ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة.
- الثانية: أنها وعد من الرحمن ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ بها، وهم ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: غائبين عنها، لم يشاهدوها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُومًا بَيِّنًا﴾ متحققًا، لا يتخلف.
- الثالثة: أنهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ من الكلام ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ من الملائكة عليهم، أو من بعضهم على بعض.
- الرابعة: أنهم ﴿لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: على مقدار طرفي النهار من الدنيا، إذ لا ليل ولا نهار في الآخرة.
- الخامسة: أنها ميراث الأتقياء ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ بطاعة الله تعالى.

تأخر نزول الوحي على النبي ﷺ أيامًا، فقال النبي ﷺ لجبريل: «ما منعك أن تزورنا» فأنزل الله تعالى قوله الكريم على لسان جبريل ﷺ:

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا يَكِينُ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفُنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رُبُّكَ نَسِيًّا ۖ رَبُّكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُمْ سَمِيًّا ۝﴾

أي: ﴿وَمَا نَنْزِلُ﴾ نحن الملائكة بشيء من الوحي ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ لنا بذلك. حيث إن ﴿لَهُمْ﴾ سبحانه ﴿مَا يَكِينُ أَيْدِينَا﴾ من أمور الآخرة ﴿وَمَا خَلْفُنَا﴾ من أمور الدنيا، فهو المالك لكل شيء، المدبر لكل شيء إلى قيام الساعة.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ سَمِيًّا﴾ أي: ناسياً لك بتأخير الوحي عنك، ولكن كل شيء عنده بمقدار.

هو سبحانه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يستحيل عليه النسيان. إذن.. ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ أي: أقبل على عبادته، ولا تحزن بإبطاء الوحي عنك، واستهزاء الكفرة بك، وعنادهم لك.. فإنه سبحانه: يراقبك، ويلطف بك في الدنيا والآخرة، ﴿وَأَصْطَرِ لِعِبَادَتِهِ﴾ أي: اصبر عليها، وعلى أدائها تامة كاملة. ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي: شبيهاً، أو مثيلاً..؟ أبداً.. أبداً.. وما دام الأمر كذلك: فلا بد من التسليم لأمره، والاشتغال بعبادته، والصبر على مشقاتها. هذا.. ولما أمر الله تعالى بالعبادة والمصابرة عليها، فكأن كافرًا قال: هذه العبادة لا منفعة لها حيث لا بعث، ولا حساب. ولذلك: حكى الله إنكاره للبعث، قائلًا:

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ ﴿٦٦﴾ يعني: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ الكافر ﴿أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ مرة أخرى من القبر، كما يقول محمد، هذا لا يعقل، ولا يكون أبداً. ويرد الله عز وجل إنكاره هذا.. بقوله عز وجل:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ ﴿٦٧﴾ يعني: ﴿أ﴾ نسي، أو تغافل ﴿وَلَا يَذْكُرُ﴾ هذا ﴿الْإِنْسَانُ﴾ الكافر ﴿أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ إذ كان عدماً ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ فلم يستدل بالابتداء على الإعادة..؟ ثم يهدد ربُّ العزة هذا الكافر وأمثاله بقوله تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِثًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾

أي: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ يعني: هؤلاء المنكرين للبعث، ﴿و﴾ نحشر معهم ﴿الشَّيَاطِينَ﴾ الذين كانوا يغرونهم بالكفر ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ جميعاً ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ أي: باركين على ركبهم، ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ فرقة منهم ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِثًّا﴾ أكثرهم فجوراً وإجراماً، وهم قادتهم في الضلال، ورؤساؤهم في الكفر، ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا﴾ أي: أولى وأحق بعذاب جهنم ﴿صَلِيلًا﴾ دخولاً، واحترافاً، وخلوداً.. فندخله أولاً، ونضاعف عذابه.

ولمّا تحدث ربنا جل ذكره عن جهنم ودخولها عقب عليه بقوله سبحانه:

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ﴿٧١﴾ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا﴾ ﴿٧٢﴾

يعني: وما ﴿مِنْكُمْ﴾ يا بني آدم أحد ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وهي: جهنم ﴿كَانَ﴾ ذلك ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ سبحانه ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ قضى به، لا يتركه.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ من البقاء والخلود فيها ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ربهم، فلم يكفروا به، ولم يشركوا معه أحداً، وآمنوا به، وأطاعوا رسله، وعملوا بشرعه.

﴿وَنَذَرُ﴾ ونترك ﴿الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا﴾ باركين على ركبهم يعذبون فيها.

هذا، وإذا كان المولى جلت حكمته قد بين فريقاً من أهل النار، قد كفر بسبب إنكاره البعث؛ فهذا بيان لعله أخرى من علل كفرهم وهي: الغرور بالدنيا ومتاعها الزائل.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ﴿٧٣﴾

يعني: ﴿وَإِذَا نُتِلَىٰ﴾ وتعرض ﴿عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ الواضحة، الداعية للإيمان ﴿قَالِ﴾ للَّذِينَ كَفَرُوا بالله، وأنكروا البعث ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ انظروا لحالكم وحالنا، وقلوا لنا ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ منا ومنكم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ عيشة وسكناً وزينة ومتاعاً ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: مجتمعاً وبيئة..؟ وبالطبع: فنحن - كما ترون - خير منكم مقاماً،

وأحسن منكم مجتمعاً. فكيف نكون على الباطل، وتكونون على الحق...؟ إن هذا لا يعقل إطلاقاً.

ويرد الله عليهم غرورهم، ويهدم لهم حجتهم بقوله سبحانه:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئًا ۖ﴾ (٧٤)

يعني: لا ينبغي أن يغتروا بالدنيا ومتاعها الزائل، ويكفروا بالله، فكم ﴿أَهْلَكْنَا﴾ ودمرنا وعذبنا ﴿قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ﴾ أهل عصر، كانوا ﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾ منهم وأكثر ﴿أَثْنًا﴾ متاعاً ﴿وَرِئًا﴾ ومنظراً، ولو كان متاع الدنيا، وامتلاكه.. علامة على أن أصحابه على الحق، ما عذبناهم؛ فالأمر إذاً على غير ما تدعون، ويفهم الكثيرون.

ولذلك يأمر الله محمداً ﷺ في وحي يتلى ويعمل به إلى يوم القيامة، أن يذكر سنة الله في التعامل مع الكافرين ومع المؤمنين كذلك، في صورة أخاذة. حيث يقول جل وعلا:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ۖ﴾ (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۖ﴾ (٧٦)

المعنى: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ لاهياً، وعلى الكفر معانداً ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ فليمهله إمهالاً، ولا يعاجله بالعقوبة، ليزداد طغياناً وعقوبة، ولا يظن أن هذا تكريم له.

﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ جاء الوعد الحق، و ﴿رَأَوْا مَا﴾ كانوا ﴿يُوعَدُونَ﴾ به ﴿إِمَّا الْعَذَابَ﴾ في الدنيا ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾، وفيها يدخلون جهنم ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ ساعتها علماً حقيقياً ﴿مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا﴾ منزلاً وإقامة ﴿وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ أي: أعواناً يساعدونه، وأنصاراً يدفعون عنه العذاب، هم أو المؤمنون...؟

هذا، وكما أعد الله للظالمين؛ ليزدادوا عقوبة: يزيد المؤمنين هداية ومكافأة؛ حيث يقول سبحانه ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ بالإيمان ﴿هُدًى﴾ ثباتاً، و يقيناً، وجزاء حسناً على هذا الهدى.

ثم يقرر ربنا أن الأمر على خلاف ما يفهم الكفار، فيقول: ﴿وَلَبَقِيتُ أَصْلَحْتُ﴾ وهي الأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وأهلها كذلك ﴿ثَوَابًا﴾ من أعمال الكفار ﴿وَحَيْرٌ مَرَدًّا﴾ مرجعاً إليها، حيث يرد أصحابها إلى ربهم، ويدخلون الجنة، وأما الكفار، فيردون إلى ربهم ويدخلون النار.

بعد أن انتهت قصة أولئك الذين قالوا ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا أَىُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]..!! يقول لمحمد ﷺ أيضًا: أخبر بقصة هذا الكافر العجيبة كذلك. حيث يقول له متعجباً منها:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾

هذا الكافر يمثل نموذجاً من الناس يغترون بأموالهم وأولادهم، ويسخرون من قضية الإيمان بالبعث واليوم الآخر. وقد حدث فعلاً أن قال العاص بن وائل الكافر ساخراً لخباب بن الأرت المؤمن، وهو يطالبه بدين له عليه: أنت تزعم أن هناك بعثاً وجزاءً، فإذا كان هذا اليوم حسب زعمك، فسيكون عندي أموال وأولاد مثلما هو عندي في الدنيا، وساعتها سأرد إليك مالك.

ويرد الله على هذا الكافر وأمثاله قوله، ويبطل زعمه قائلاً:

﴿أَطْلَعَ الْغَيْبِ أَمْ أَتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٧٨) ﴿كَأَلَّا سَكَتُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ (٧٩) ﴿وَنَرِئُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا﴾ (٨٠)

والمعنى: ﴿أ﴾ يقول ذلك، لأنه ﴿طَّلَعَ﴾ على ﴿الْغَيْبِ﴾ فعرفه..؟ ﴿أَمْ﴾ يقول لك، لأنه ﴿أَتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ بأن يؤتيه: ﴿مَالًا وَّوَلَدًا﴾؟ فضمن ذلك. ﴿كَأَلَّا﴾ لا هذا، ولا ذاك، هو مخطئ في كل ذلك. و﴿سَكَتُ﴾ عليه في صحائفه ﴿مَا يَقُولُ﴾ من سوء، واستهزاء، وكفر. ﴿وَنَمُدُّ لَهُ﴾ ونزيد له ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ كما زاد في الاستهزاء، والافتراء ﴿مَدًّا﴾.

﴿وَنَرِئُهُ مَا يَقُولُ﴾ ويتباهى به في الدنيا، من مال وولد، ونسلبه منه، ونعطيه لغيره في الآخرة، ﴿وَيَأْتِنَا فَردًا﴾ كما ولد فرداً، لا مال له، ولا ولد معه.

نلاحظ: أن الآيات السابقة أقامت الحجة على وجود اليوم الآخر، وأبطلت منطق في أن

الدنيا: هي الميزان، وأن الإكرام الدنيوي دلالة على الإكرام الأخروي، لو كانت هناك آخرة.. تأتي الآن آيات كريمة تنقض على المشركين موقفهم في اتخاذ آلهة من دون الله تعالى. حيث يقول العزيز الحكيم:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ﴾

أي: اتخذ هؤلاء الكفار ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ وهي الأصنام، وغيرها مما يعبدون ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ في الدنيا، ونصيرًا من العذاب في الآخرة لو كانت هناك آخرة، وفيها عذاب لهم. لا، ليس الأمر كما يزعمون، ولا كما يودون:

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۖ﴾

يعني: ﴿كَلَّا﴾ لن يكونوا لهم عزًا، بل ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ أي: هذه الآلهة، وينكرون عبادتهم ﴿وَيَكُونُونَ﴾ في ذات الوقت ﴿عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ يبخسونهم، لا عزًا يرفعونهم. والعجيب أنهم خضعوا لشياطينهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ۖ﴾

أي: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا﴾ سلطنا ﴿الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ تغريهم بفعل المعاصي، و ﴿تَؤْزُهُمْ﴾ وتدفعهم على فعلها ﴿أَزًّا﴾.

لا تهتم بهم، ولا تشغل من أجلهم..

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذًّا ۖ﴾ ﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًّا ۖ﴾ ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا ۖ﴾ ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ﴾

يعني: ﴿فَلَا تَعْجَلْ﴾ بطلب نزول العذاب ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ولا تحزن لعدم نزول العذاب سريعًا بهم.

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ أعمالهم للجزاء، وأنفاسهم في الدنيا ﴿عَدًّا﴾، ولكل أجل كتاب. فإذا جاء أجلهم، وآجال الناس جميعًا.. وجاءت الساعة، وقامت القيامة: ﴿يَوْمَ﴾ ها.. ﴿تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ بسبب إيمانهم وطاعاتهم ﴿إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ مكرمين، راكبين، منعمين. ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ﴾ بسبب كفرهم، وعصيانهم، وندفعهم رغما عنهم ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ وعذابها ﴿وَرْدًا﴾ ماشين عطاشى متعيين، مهانين ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ﴾ من غيرهم لهم، ولا منهم لبعضهم البعض، كما هو الحال عند المؤمنين ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ﴾ منهم قبل ذلك ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ فآمن قبل قيام الساعة، فهذا يُشَفِّعُ له وَيُشَفِّعُ لغيره.

هذا، وتأتي آيات كريمة أخرى تنقض على المشركين دعواهم بأن الله يتخذ لنفسه من عباده ولدا، قال عز وجل:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾

﴿وَقَالُوا﴾ أي: المشركون وبعض اليهود، وبعض النصارى ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾.

ويرد الله عليهم قولهم هذا، حيث يقول لهم:

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ﴿٩١﴾

يعني: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ وقلتم ﴿شَيْئًا إِذَا﴾ منكرا فظيعا، تحدث من هوله أحداث جسام:

أولها: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ﴾ يتشققن ﴿مِنْهُ﴾ إنكارا له.

ثانيها: ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ أي: تكاد تنخسف الأرض من هوله.

ثالثها: ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا﴾ أي: تسقط الجبال قطعًا.

وكل ذلك بسبب ﴿أَنْ دَعَوْا﴾ أي: المشركون ﴿لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ونسبوه إليه.

هذا، والرد عليهم بمتنهى الإيجاز..

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ﴿٩٢﴾

يعني: القول الفصل أنه ﴿وَمَا يَنْبَغِي﴾ وما يصلح ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ سبحانه ﴿أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما يقول هؤلاء وهؤلاء.

وذلك بسبب ما يقوله رب العزة جل وعلا:

﴿إِنْ كُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

والمراد من هذه الآيات: أنه ما من معبود لهم ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كالملائكة والناس ﴿إِلَّا﴾ وهو ﴿آتَى الرَّحْمَنِ﴾ يوم القيامة ﴿عَبْدًا﴾ مطيعًا.

﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ﴾ الله بعلمه ﴿وَعَدَّهُمْ﴾ بقدرته ﴿عَدًّا﴾ فهو محيط بهم.

﴿وَكُلُّهُمْ﴾ العابدون والمعبودون ﴿آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ بلا مال، ولا ولد، ولا معين، ولا مدافع. فكيف يكون الإله على هذا النحو، ويحتاج إلى اتخاذ الولد كما يزعمون..؟

وبعد كل هذا، تأتي الآيات بثلاثة أشياء وتنتهي هذه السورة:

الأول: البشارة للمؤمنين في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾
يعني: سَيَجْعَلُ الله الود والمحبة في قلوب الصالحين، لهؤلاء: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وهي بشارة طيبة لهم.

الثاني: حكمة إنزال القرآن الكريم في قوله سبحانه:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴿٩٧﴾﴾
يعني: سهلنا القرآن، و ﴿يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ يا محمد ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ﴾ المؤمنين ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ العاملين، بأن لهم الجنة ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا﴾ معاندين ﴿لَّدَا﴾ أشداء في الخصومة بالباطل، وتخوفهم بأن لهم عذاب جهنم.

الثالث: التهديد والتخويف للكافرين في قوله تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (٩٨)

يعني: لقد ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ أهل قرون كثيرة ﴿هَلْ﴾ تجد و﴿يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ بقي؟ ﴿أَوْ﴾ هل ﴿تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ صوتًا خفيًا؟ لا.. لا هذا ولا ذاك، حيث لم يبق منهم شخص يرى، ولا صوت يسمع، إذ كلهم هلكوا فليحذر هؤلاء، وكل كفار الدنيا، إلى يوم القيامة.

* * *